

منهج الفكر التربوي الإسلامي... تأصيلا لمدرسة

الفقه والحديث في القيروان

د. عمار الهمادي - (تونس)

المدخل العام :

لا شك أنه لكل أمة من الأمم على وجه البسيطة تاريخ... والأمة هي التاريخ... وتاريخ كل أمة إنما هو تلك البصمات التي يطبعها رجالها الذين يصنعون تاريخ أمتهم بالجهد والتضحية والبذل والعطاء في كل ميادين حياتها، والذين يجعلون الدم يتدفق في شرايين تلك الحياة، باعثة فيها الروح لتنمو وترقى صعدا، ناشدة البقاء بكل عزم وقوة. ولا تزال الأمم منذ أقدم العصور في مسار تقدمها ورفيها تقتبس من نور تاريخها وتلتزم بوحى تراثها وتهدى بهدي عظماء رجالها، لبناء مجدها ومستقبل حضارتها ولا تزال الأمم تربي أبنائها وتؤدبهم بتراث آبائهم وأجدادهم، وتلقنهم عاداتها وتقاليدها حتى تنمي فيهم روح الالتزام والتمسك بقيمها وأخلاقها وفضائلها، لأن ذلك يعد شيئا من الوفاء لتاريخ صنع الآباء والأجداد جيلا بعد جيل بجهادهم وصبرهم وتفانيهم فيكون ذلك مرآة عاكسة لصفحات الماضي على الحاضر، وبناء المستقبل وبهدي من ذلك التاريخ صنعت الأمم حضارات مختلفة منها ما اندثر، ومنها ما يزال حيا شامخا ثابتا يصارع دون فتور. ولعل ذلك يصدق على تاريخ الأمة العربية الإسلامية التي أعطت الأمم شرقا وغربا أغنى الأمثلة وأقوم السبل والمناهج لبناء أروع الحضارات وتشبيد المدنيات. ذلك أنه لكل أمة مناهجها وقيمها ومبادئها التي تسير على

هديها، تأصيلا لكيانها وعملية التأصيل للكيان هذه، لا يمكن لها أن تستمر وتتواصل إلا بتربية الأجيال وفق مناهج معرفية علمية لا ينضب لها معين يقول عبد الرحمان بدوي في كتابه (مناهج البحث العلمي)... "ومن هنا كان الاهتمام البالغ بتقنين مناهج البحث العلمي منذ أيام أرسطو حتى الآن. ويمكن أن نفسر تطورات العلم والمعرفة العلمية بأدوارها المتفاوتة عن طريق بيان المناهج العلمية في تحصيلها. والعلم لا يرتقي ويزداد أصالة إلا بالدقة في تحديد المناهج وتقدير مبادئها القويمة (1)". والمراد بالمنهج العلمي بأوسع معانيه، هو الطريقة التي يسلكها العقل في دراسة أي موضوع لأي علم من العلوم، للوصول إلى قضاياه الكلية التي يطلق عليها اسم القوانين، أو هو الطريقة التي يبني بها العلم قواعده ويصل إلى حقائقه (2).

ومن بين المناهج العلمية التي اهتم بها الإنسان في كل الحضارات، كان المنهج التربوي، ذلك أن موضوع التعليم ومناهجه موضوع جليل الشأن في كل العصور، وفي كل الأمم. وقد عني به الباحثون من العلماء والفلاسفة، فألفوا فيه الرسائل، وكتبوا فيه الكتب منذ عهد بعيد، ولا يزال موضع اهتمام المفكرين والمصلحين. ولا غرو فإن العلم أساس كل إصلاح وتاج كل نهضة. والتعليم ليس إل السبيل إلى نشر العلم وتثقيف العقول وتهذيب النفوس. لهذا فلا بد من النظر إلى التربية في إطارها الأوسع والأشمل باعتبارها قبل كل شيء وسيلة لإعداد الإنسان الذي تتميز شخصيته بمقومات وصفات تؤهله ليساهم في نقل المجتمع الذي يعيش فيه من مرحلة التخلف إلى مرحلة العلم حتى

(1) عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي ص 7 ط...

(2) مناهج البحث في علوم التربية وعلم النفس /9.

يستطيع أن يقوم بأداء دوره على أكمل وجه في ميدان التغيير الاجتماعي والتحول الثقافي للانطلاق إلى المستقبل (1).

إن عملية التربية والتعليم أو المنهجية التربوية أصبحت مقترنة بفلسفة التغيير والتحول التي ترومها الأمة وينشدها المجتمع في نظرتة إلى المستقبل، ويراد منها بناء أسلوب التفكير المعين الذي يبغيه للأجيال المتتالية. إن التربية والتفكير عنصران متلازمان لا ينفصلان حتى أصبح من وظيفة التربية أن تعنى بتعليم الناس كيف يفكرون، وأن تحذرهم من مزالق التفكير، وتدرهم على أساليبه السديدة، فيستطيعون بذلك أن يشقوا طريقهم في الحياة بنجاح، ويدعموا بناء الحضارة، حتى لا يصيروا عبيدا للغير في تفكيرهم. وهذا هو شر ألوان العبودية (2). إن النظام التعليمي في بلد ما، أو المنهج التربوي هو بلا شك حجر الأساس للمجتمع، كما أكده علماء التربية في كل زمان ومكان. ويشير الدكتور فاضل الجمالي في كتابه (تربية الإنسان الجديد): "إن عملية التربية والتعليم هي من أهم الوسائل لإدامة الأمة وتطوير المجتمع. ولكنها (عملية التربية)، وهي تعمل على تطوير المجتمع هي أيضا تتطور وفق تطور الأزمان والأفكار والبيئات" (3). كما يضيف في هذا الإطار: "كان الفيلسوف اليوناني العظيم أفلاطون، أول من كتب عن العلاقة الوثيقة بين التربية والمجتمع، فسلامة المجتمع بل سلامة الإنسانية كلها، تتوقف في رأي أفلاطون على سلامة التربية التي يقدمها المجتمع للأفراد، فإن صلحت التربية صلح المجتمع، وإن فسدت اضمحل المجتمع وزال من الوجود، وإن

(1) م. ن / 31 (بتصرف).

(2) م. ن / 67.

(3) د. فاضل الجمالي، تربية الإنسان الجديد ص 67 ط...

"جمهورية" أفلاطون هو أول كتاب وضع في التربية. وقال عنه "روسو": إنه أطرف بحث كتب في التربية على الإطلاق (1).

ويؤكد الباحثون الغربيون أن المنهج التربوي هو صورة لأحوال المجتمع، فيقول عالم التربية بيتس - Betts - في كتابه (المبادئ الاجتماعية للتربية): "على المجتمع يقع عبء تعليم الأجيال الجديدة، والمجتمع هو الذي يهيأ البيئة الصالحة لنمو الأفراد، وعلى الأفراد أن يحملوا عبء المسؤولية فيستجيبوا لنداء التعليم بحسن التعلم".

وقد عرف بيتس التعليم بتعريفين من حيث أهدافه:

1- يرمي التعليم إلى تنمية مواهب الفرد.

2- إعداد الفرد للحياة الاجتماعية.

والمقصود بمواهب الفرد، القوى العقلية المختلفة كالذاكرة والابتكار والذكاء والملاحظة . . .

أما الباحث أ. مالو A. Millot أستاذ علوم التربية بجامعة السوربون فيقول: "الآراء متفقة في

جميع الشعوب الحديثة على أن التعليم يجب أن يعد الفرد للحياة الاجتماعية".

أما الأمة العربية الإسلامية فكان لها أيضا المنهج التربوي الخاص بها، الذي استوحته من دينها

الحنيف، ومن قيمها الحضارية العريقة ومن شريعتها المطهرة. مثلما بين ذلك الدكتور الجفالي في عدة

ملاحظات: "ان القرآن الكريم هو للمسلم أعظم كتاب في فلسفة التربية والتعليم . . . وفي الحقيقة

(1) م.ن/77.

إن القرآن الكريم هو كنز عظيم من كنوز الثقافة الإنسانية، ولا سيما الروحية والأخلاقية على وجه الخصوص (1).

هذا ولم يكن النظام التعليمي أو المنهج التربوي غريبا عن الأمة الإسلامية، عن مشاكلها الحيوية وطموحاتها المشروعة إلى التطور والتقدم، فضلا عن كونه في الواقع عامل بناء لكل مقومات الشخصية الإسلامية بما تحويه من ثقافة عربية إسلامية ولغة وتاريخ وحضارة، . . . فإذا كان الإنسان هو أداة التنمية الشاملة، وهو غايتها في وقت واحد، فلا بد من التركيز على تكوينه علميا وتربويا تكوينا متينا حتى يستطيع تحقيق المجتمع المنشود والتطور المطلوب ولقد أصبح من الأمور البديهية لدى رجال الفكر والتربية المسلمين ان التقدم في أي مجال من المجالات مرهون بالمنهج العلمي، يدور معه وجودا وعدما (2). لذا اتفق أن المسلمين لم يتخلفوا عن غيرهم في ميدان هذا الحديث. لقد كتب في التعليم أئمتهم ومفكروهم منذ القرون الأولى. وكانت لهم أنظار طريفة.

لم يأت تطاول الزمن على جدتها. ذلك ما ستتناوله هذه الدراسة بالبحث والتركيز.

المنهج الفكري التربوي في القيروان

عرفت إفريقية عامة والقيروان خاصة فن التربية والتعليم بداية من الفترات الأولى لفتحها على غرار مثيلاتها من مدائن المشرق العربي وكان التعليم كما يقول أحد المرينين: يحتاج إلى منهج إذ ما فائدة المعلومات والمعارف إذا كان الإنسان عاجزا عن تصريفها وغير مؤهل لإبلاغها إلى غيره بطريقة

(1) م - ن / 97.

(2) مناهج البحث في علوم التربية / 7، 8.

سهلة وجذابة، تستولي على المشاعر وتستقطب الانتباه، فينبعث في نفس الآخذ عنه دافع التلقي، ويتحرك في مشاعره حافز التكوين فتنشط ملكاته وتنطلق من كوامنها لتبني الفرد القادر على التحمل ثم الأداء فيغدو هذا الفرد مثقفا أكثر منه متعلما. وهذا أسمى ما بلغته الحضارة الإنسانية في ميدان التربية والتعليم.

ذلك أن الثقافة هي كل ما يبقى للإنسان من معارف بعد أن يكون قد نسي كل شيء. ولذا فحن في حاجة إلى مثقفين لبناء حضارة القيروان (1).

إن موضوع التعليم وطرائفه ومناهجه، كان محور الحضارات عند جميع الأمم والشعوب، مثلما سلفت الإشارة إليه بالفصل الأول من هذه الدراسة فقد كان هذا "الموضوع محل العناية والرعاية من قبل الباحثين والعلماء وأهل السلطة في كل مصر وعصر. ولم يكن ذلك غريبا عن أمة الإسلام دين العلم والمعرفة، حيث كانت للمسلمين طرائق متجددة ومتطورة لتربية أطفالهم بالبحث عن أنجع المناهج التربوية وأسلم الطرق التعليمية. وشأن المغاربة منذ تعرفهم إلى الدين الجديد لم يكن أقل من شأن المشاركة بالاهتمام بهذا المجال البناء لتطوير حضارة إفريقية مزدهرة كانت ومازالت مضرب الأمثال إلى اليوم، استغرقت جهود الباحثين والعلماء من كل مكان، كما أكد المؤرخ التونسي الحبيب الجناحاني: "كان للمدرسة السننية بالقيروان أثر بارز في ترسيخ الشخصية الإفريقية . . . ومازلنا محتاجين إلى دراسات علمية جامعة عن أهم عصور الحضارة الإفريقية حيث أن الميدان مازال فسيحا أمام الباحثين. وما الدراسات والبحوث التي أنجزت عن القيروان ليست إلا مساهمات

(1) ابن أبي زيد القيرواني /178.

متواضعة تندرج ضمن خدمة تاريخ إفريقية، ومحاولات بسيطة تلقى بعض الأضواء على بعض القضايا، لكنها ليست من الدراسات العميقة المفصلة الأكاديمية (1).

لذلك كانت البدايات العلمية والعملية التربوية الإسلامية بالقيروان مبكرة جدا، ترجع إلى بدايات الفتح العربي الإسلامي لربوع المغرب العربي، ومتزامنة معه، كما لاحظ الباحثة ح.ح. عبد الوهاب في موسوعة "العمر" في منتصف القرن الأول الهجري تمكن العرب من إقامة سلطانهم على البلاد الإفريقية، ولأول وهلة من فتحهم أنشأوا "قيروانهم". فكان لهم في آن واحد مركزا حربيا ومحطا لرحالهم وعيالهم، وقاعدة لبث لسانهم ومبادئ دينهم القويم.

ومن القيروان امتد سلطانهم فعم المغرب بأجزائه ثم عبر إلى العدو الأوروبية فاستقر في الأندلس وامتد إلى السودان جنوبا (2) - ويضيف صاحب كتاب "العمر" ... يرجع الفضل الأكبر في الدعاية للإسلام بإفريقية إلى دولة بني أمية فما من خليفة منهم، ولا قائد جيش ولا وال ولا محارب من جندهم إلا وقد كانت عنايته متجهة إلى تعميم الدعوة وتوطيد اللغة العربية - لغة القرآن والحديث الشريف - وما منهم إلا وقد جعل تلك الأمنية الغاية الكبرى التي يرمي إليها طموحهم الأسنى (3).

ونلاحظ من خلال دراسة تلك الحقبة التاريخية اهتمام دار الخلافة الأموية بإفريقية منذ البداية وكان متزايدا منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، عندما أرسل القائد الفاتح عقبة بن نافع، الذي اختط

(1) الحبيب الجنحاني.

(2) كتاب العمر م 37/1/1.

(3) م - ن / 46-45 .

القيروان بعد غزوها في عشرة آلاف من المسلمين، من ضمنهم عدد كبير من الصحابة والتابعين حتى تأكدت ضرورة ترسيخ الدين وتقرير أركانه في هذه الربوع القاصية عن منبع الإسلام، ثم تأكدت أيضا ضرورة إقرار العائلات والأسر، هناك تشجيع الفاتحين على الإقامة لهذا الغرض دخل عدد كبير من الصحابة التابعين بلاد المغرب واستقروا بالقيروان وأولئك المعلمين الأوائل الذين كانوا يجاهدون وينشرون الدعوة حتى اتخذهم الناس قدوة وأئمة لأن منهم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم - أو كان من كبار التابعين وخلق كثير من أفراد الجيش الفاتح، فمنهم من رجع ومنهم من استقر ومنهم من قضى نحبه ودفن بالقيروان، خاصة في الغزوة الشهيرة المعروفة بغزوة العبادة السبعة في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وهي أول غزوة في إفريقية، تحمل فيها المسلمون المشاق في سبيل إعلاء كلمة الله (1).

وتجدر الملاحظة بهذا الصدد، أنه لا يستطيع العرب الفاتحون من الاستقرار بإفريقية بسهولة بسبب ما لا قوه من مقاومة عنيفة ومعارضة شديدة من السكان الأصليين من الأفارقة والبربر، فدام ذلك الصراع والنزال أكثر من خمسين عاما، ولم ترسخ قدم الإسلام بهذه الأرض إلا مع فجر القرن الثاني للهجرة . عندئذ ابتدأ العرب يفكرون في بث تعاليم الدين وإشاعة لغته ومبادئ الشريعة الإسلامية (1).

وخلال تلك الفترة من المد والجزر منذ بداية الفتح سنة 27 هـ إلى عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، على راس القرق الأول للهجرة، بدأ الناس من السكان الأفارقة والبربر خصوصا

(1) آداب المعلمين تح. عبد المولى /28 وما بعدها - (بتصرف) .

يتعرفون إلى التعاليم الإسلامية السمحاء، فدخلوا أفواجا متتالية وتعلموا اللسان العربي وقلدوا أخلاق العرب حتى أصبحوا من أبنائه، يدافعون عن حوزته ويعملون على انتشاره وإعلاء رايته (2). وروى المؤرخ الرقيق القيرواني أن موسى بن نصير أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وأنه ترك سبعين رجلا يعلمون هؤلاء البربر شرائع الدين (3). وكان البربر قبل ذلك معتنقين لأديان مختلفة من وثنية ومجوسية ونصرانية وغيرها، حتى قال فيهم الفاتح عقبة قولته الشهيرة: إن أهل هذه البلاد قوم لا خلق لهم إن أعظم السيف أسلموا، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عادتهم ودينهم. ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا. وقد رأيت أن أبنائي هنا مدينة يسكنها المسلمون فاستصوبوا رأيه (4). وذكر صاحب "البيان المغرب": "... ولى هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض إفريقية فانفض أهلها عليه، فقتل بها ولم تستتب الأمور إلى خلافة عمر بن عبد العزيز، الذي ولى المغرب إسماعيل بن المهاجر فسار أحسن سيرة، وما زال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام، حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام - وكانت لبعثة العشرة من الفقهاء التابعين وهم أهل علم وفضل، الأثر الكبير في ذلك، ويؤيد ابن خلدون هذا القول: "وكان هؤلاء الصحابة والتابعون هم أول المعلمين في القيروان، الذين نشروا العلم من قرآن وسنة ومبادئ اللغة العربية بين أبناء البربر. وبذلك تم إسلام البربر، وأصبحت لغتهم العربية، كما حدث للفرس وغيرهم من الشعوب غير العربية. وعلى الحلقة تخرجت الفئة الأولى من

(1) كتابي العمر م 46/45/1/1.

(2) م . ن / نفس الصفحات .

(3) م . ن / نفس الصفحات.

(4) آداب المعلمين تح: عبد المولى /31.

علماء الدين في القيروان وفي المغرب كله، أمثال البهلول بن راشد ورباح بن يزيد وعبد الله بن فرخ وابن غانم الرعيني وأسد بن الفرات وغيرهم كثير. .. وهكذا انقضى نحو قرن من الزمن، منذ الفتح حتى إسلام البربر، وانقضى قرن آخر، تفقه فيه أهل شمال إفريقية حتى برز منهم علماء يشار إليهم ويعتد بهم (1).

فضاءات التعليم ووسائله:

نظرا لاهتمام أهل القيروان بالتعليم وأساليب التربية الإسلامية خاصة، والمعارف عامة، تعددت بإفريقية بالضرورة أماكن التعليم، واختلفت وسائله منذ حلول الدين الجديد بالأرض الإفريقية، وأقبل الناس على الاستيعاب والنهل بصورة تبعث على التفاؤل، وخاصة من قبل أهل البلاد الأصليين الذين وجدوا في هذا الدين ما لم يعرفوه من قبل ولم ينته فتح إفريقية في سنوات قليلة كما اعتاده المسلمون في فتح مدن الشرق، إنما دام أكثر من ستين سنة، وبذل فيها المسلمون تضحيات غالية، وقدموا أعدادا هائلة من الشهداء بين الصحابة الأجلاء وبين تابعيهم الذين كانوا بإيمانهم وجهادهم وبعزمهم وإصرارهم سببا في إضافة هذا القطر الهائل إلى أمة الإسلام. . . ولم يكن الفتح استعماريًا عسكريًا كما يذهب إليه البعض من الدارسين والباحثين من المستشرقين وذوي النزعة الاستشراقية، وإنما كان فتحًا رساليًا، سارت فيه الدعوة إلى الله جنبًا إلى جنب مع التقدم في فتح البلاد تنفيذًا لأوامر الله تعالى، بتبليغ دينه العالمي: "ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - الصف 9/". كما لم يكن أفراد الجيش الفاتح مقاتلين فحسب، وإنما كانوا قبل ذلك معلمين وهداة

(1) م.ن/ 31 و 32 (بتصرف).

وقدوة، يحملون الخير إلى كل بلد قصدوه ومنه إفريقية (1). لقد تم بناء جامع القيروان وهو المدرسة الأولى في الإسلام بهذه الأرض الإفريقية ولا شك أن الصحابة الذين حججوا الجيش الفاتح قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك. وكان مع عقبة أثناء تأسيس هذا الجامع، المدرسة ثمانية عشر صحابيا، ومكثوا بها خمس سنوات كاملة، كان عملهم فيها نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة الشريفة (2) ولإدراك المسيرة العملية التربوية والتعليمية بالقيروان لا بد من الإشارة إلى طريقة القيروانيين في تعليم أطفالهم، بالتحرف إلى فضاءات الدروس التي كانت متبعة حينذاك، وكذلك الوسائل المستعملة والتي كانت كثيرا ما تخضع للظروف والأحوال ومن الملاحظ بهذا الصدد أن العملية التربوية كانت عموما تبدأ في البيت عن طريق المحاكاة والتلقين مثلما أشار جل الدارسين لهذه الظاهرة عند العرب المسلمين، وفي القيروان بصفة خاصة ذلك أن الطفل ينشأ فيرى آباءه يقرأون القرآن ويقيمون الصلاة ويصومون رمضان وغير ذلك من الشعائر الدينية، فتنتطبع تلك الصورة في ذهنه منذ السنوات الأولى، ويتأثر خطأها بالتقليد وإذا لم يتأثر بالمحاكاة دفع دفعا إلى تعلم القرآن وإلى إقامة الصلاة، وأمر بها، وكلف بها تكليفا عملا بالحديث الشريف "وعلموهم لسبع واضربوهم لعشر". ولكن مع الأيام واتساع العمران وتداخل بشؤون الحياة وقع الاهتمام بأمر التعليم وتنظيم العملية التربوية بصورة أكثر دقة وأحسن منهاج، فكثرت وتعددت فضاءات التعليم واختلقت وسائله كما لاحظته ابن خلدون في الفصل المخصص للتربية والتعليم بإفريقية من مقدمته: "غير أنه مع اتساع العمران وارتفاع شأن الحضارة قد اضطر إلى تنظيم أمر

(1) مدرسة الحديث: 43/1 (بتصرف).

(2) م. ن. / 1 / 51.

التربية التي خرجت من نطاق البيت إلى مجال المدرسة، حيث يقوم على أمرها معلمون احترفوا هذه الحرفة واختصوا بهذه الصناعة (1) فنشأت من أجل ذلك المؤسسات التعليمية كالكتاتيب والمساجد والمدارس .

تأثير المنهج التربوي في تأصيل مدرسة القيروان في الفقه والحديث

إن المنهج التربوي الإسلامي عامة والإفريقي خاصة، والذي تعرضت هذه الدراسة إلى رسع خطوطه، كان منهجا متميزا متفردا في وسائله هذه وفي أهدافه بشكل يلفت النظر، ويدعو إلى التفكير في مصدر هذه العقيدة التي تفردت على مدار التاريخ، تلك هي طريقة الإسلام في التربية التي تقوم أساسا على معالجة الكائن البشري كله، معالجة شاملة، بجسمه وعقله وروحه في حياته المادية والمعنوية، وفي كامل نشاطه على الأرض. وتلك هي خاصية هذا الدين الذي يأخذ الكائن البشري كله، يأخذه على ما هو عليه بفطرته التي خلقه ادله عليها، لا يغفل شيئا من هذه الفطرة ولا يفرض عليها شيئا ليس من تركيبها الأصلي.

ومن غايات هذا المنهج، الذي حاول هذا البحث وضع ملامحه تكوين مجتمع مسلم سني في عقيدته وسلوكه، وأجل إن تكوين المجتمع المسلم هو الهدف الأخير للتربية الإسلامية القومية ولكن هذا المجتمع في ذلك الحين وفي ذات الوقت هو الأداة الموصلة إلى تثبيت أسس المنهج التعليمي والتربوي بتثبيت المفاهيم الإسلامية الصحيحة والسليمة، ثم تنشئة الأفراد عليها منذ نعومة أظفارهم

(1) التربية في الإسلام / 9 وما بعدها.

حتى ينطبعوا بانطباعاتها، فيكونوا صدى ذاتيا للتفاعل معها تأثرا وتأثيرا في مستقبل أيامهم وعصورهم.

طبيعي إذا أردنا إنشاء مجتمع إسلامي أصيل ومتأصل في هويته، متجذر في تربته أننا نبدأ قبل كل شيء بالفرد وبالمجموعة من الأفراد حتى يكونوا هم الهداة وحملة المشعل إلى الآفاق .

ذلك هو المنهج الفعال الذي سار على هديه رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى دين الله الحنيف، فتلقى الوحي والرسالة فامتألت بما نفسه الطاهرة ثم تحرك للعمل بصبر وثبات، لا يلين ولا يزيغ حتى يتغير وجه الأرض لأن الحق سبحانه وتعالى اراد أن يظهر دينه على الدين كله وأراد أن يسند نبيه صلى الله عليه وسلم لأن ما آتاه هو الحق. وأصبح من البديهي في منهج التربية الإسلامية أن يكون هناك مجتمع سليم العقيدة وراسخ الدين حتى تكون كل جهوده المضنية التي بذلها ويذلها في مجال التربية والتعليم لم تذهب سدى ولم تضع هباء وذلك ما قام به المجتمع القيرواني منذ تعرفه إلى هذا الدين وتشريه روحه. لقد ظل علماء إفريقية يناضلون ويكابدون بكل وسيلة واداة حتى تبقى قيروانهم منارة الإسلام أبد الدهر.

ومن أهم الوسائل البناءة التي استعملوها التربية والتعليم عملا بروح الآية الكريمة: " اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علقٍ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" (سورة العلق) وعملا بمنهج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين (رواه الشيخان)". وعملا بروح هذا المنهج التربوي الإسلامي أقبل سكان إفريقية منذ بواكير الفتح المبارك على العلم والمعرفة دون كلل ولا ملل.

كيف تم ذلك ؟ هذا ما سيقع استخلاصه واستبياناه في هذا الفصل بحول الله تعالى وفي أهم

المحاور التالية:

الإقبال على التعليم:

جاءت كتب التاريخ والأخبار المختلفة، توضح مدى اهتمام أبناء إفريقية بالتعليم في العهد الأول للإسلام فكان إقبال كل الشرائح الشعبية من عرب وبربر على تقييد مروياتهم وإثباتها في كرايس الرقوق لتكون عوناً لهم على مراجعة معلوماتهم ومما ثبت عن الأمام سحنون - رحمه الله - أنه كان يقول "العلم صيد والكتابة قيد". لقد كان أبناء البربر الداخلين في الدين الجديد.

استقطبت القيروان منذ البداية أعداداً هائلة من البربر المسلمين حتى قال فيهم المؤرخ ابن خلدون، لما تحدث عن القائد عقبة بن نافع وأعماله في هذا الميدان: "... فدخل عقبة إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه، ودخل أكثر البربر في الإسلام، ورسخ الدين . . . ومن القيروان انتشر الإسلام في بلاد المغرب وبنى مساجد عديدة في بعض المدن لتعليمهم وتفقيهم . . . ترك عقبة صاحبه شاكرًا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر. ومن قبله تألف أبو المهاجر كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر. فدخلوا في دين الله أفواجا. كما دعم حسان بن النعمان جهود عقبة في نشر الإسلام بينهم، حيث خصص ثلاثة عشر فقيها من التابعين لتعليم أبناء البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، ثم واصل موسى بن نصير هذه المهمة حيث أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيها لتعليم أهله. ومن هنا

كان لا بد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الدين واللغة كان ذلك كله دافعا قويا وسببا مباشرا في نشأة الكتاتيب بإفريقية في وقت مبكر (1).

كان الكتاب على بساطته دهرًا طويلًا في الإسلام يمثل بين معاملة معهد التعليم الابتدائي، والتربية الأولية، وهو محل رعاية القادة والمفكرين، ومحل عناية العلماء العاملين، فأثبت نباتًا صالحًا، أينعت ثماره، فنبغ الفقهاء والأدباء والفلاسفة والحكماء (2) في عهد الأغالبة، انتشرت الحركة التعليمية وازدهر إنتاجها وتبين منهجها بملامحه وأهدافه. اهتم الأغالبة بالتعلم والتعليم في أيامهم، فقال فيهم ابن الأبار في كتابه "الحلة السيرة" كان إبراهيم بن الأغلب في أول حياته كثير الطلب للعلم، والاختلاف إلى الليث بن سعد الفقيه . . . كما أنه كان من الشعراء المجيدين، والخطباء البلغاء، والمترسلين البارعين". وزيادة الله الأكبر بن إبراهيم بن الأغلب (تولى الحكم: 201-223 هـ) كذلك كان أفضل أهل بيته وأفصحهم لسانًا وأكثرهم بيانًا، وكان يعرب كلامه ولا يلحن دون تشادق ولا تقعر ويصوغ الشعر الجيد. . . وإجمالًا كان أمراء هذه الأسرة المالكة يبذلون مزيد الجهد والعناية التامة بالتعليم والحث عليه. وتجدد الإشارة هنا إلى أن الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني كان قد تعلم في صغره اللغة اللاتينية حتى أتقنها، وكان يتكلم بها مع فتيانه وجواريه من الصقالبة، وكان يحسن علم الفلك ويرصد النجوم ويرسم أزياجها وحساباتها، وله الفضل في تأسيس بيت الحكمة بقرادة (1) ذلك ما يدل دلالة واضحة على نشاط الحركة التعليمية ورسوخ محبة العلم وأهله، وتعميمه بين الذكور والإناث ونشر وسائله والتحرير والترغيب في الإقبال عليه، في عهد هذه

(1) مدرسة الحديث: 51 / 1 وما بعدها.

(2) مدرسة الحديث 58 / 1.

الدولة التي ركزت بفضلها حضارة عربية إسلامية بالقيروان والغرب الإسلامي عامة شهد لها التاريخ بالازدهار والتقدم وكان أهم عامل له الأثر الكبير في هذا المجال هو عدم فرض القيود على المناهج التعليمية إذًا بل فتحت أبواب حرية الأخذ والطلب على مصراعيها أمام الجميع.

أما الفاطميون فسجل لهم التاريخ أيضا نشاطا كبيرا في ميدان التعليم على نخلتهم ومذهبهم الشيعي (2).

ولم يقتصر التعليم على أبناء المدن فحسب بل تجاوزه إلى أبناء البوادي والأرياف الذين وجدوا تشجيعا للإقبال على التحصيل والطلب على أكبر وأفضل العلماء بالقيروان مثل أسد بن الفرات والإمام سحنون وغيرهما. لقد تحدث القاضي أسد بن الفرات عن والوفدين عليه من أهل بادية القيروان، فإذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم تر أحدا منهم يجيء إلينا، فإذا انقضى حرثهم وحصادهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الدراسة (3).

إن منهاج التعليم الإسلامي بالقيروان والمنشغلين به قد أخرج رجالا نوابغ وعلماء أفذاذا تباهي القيروان بهم طيلة أربعة قرون كاملة بداية من القرن الثاني إلى زحفة بني هلال المشؤومة على إفريقية، وانتقلت بعض وسائل التعليم إلى مدن أخرى بالساحل التونسي مثل المهديّة وسوسة وصفاقس

(1) كتاب العمر 51/1/1 وما بعدها.

(2) م-ن 54-53 /1/1 (انظر التفاصيل الهامة).

(3) الرياض 1 / 268.

حيث تمشت فيها هذه الحركة على مهل وبطء إلى أواسط القرن السادس الهجري وكانت مدينة تونس عاصمة البلاد وكعبتها المقصودة فانتقلت وقتئذ الحركة العلمية إليها (1).

الرحلة للتصنيف:

بالإضافة إلى ما ساهم به الأقبال على حب العلوم والمعرفة بمدائن إفريقية طويلة الفترة المتحدث عنها هناك جانب آخر، لا يقل أهمية وقيمة في إثراء الحركة العلمية بالقيروان، وتأثيرها في منهج التربية الإسلامية، وتأصيل القيروان في هويتها العربية الإسلامية ألا وهو الارتحال والانتقال بغرض النهل ومزيد طلب العلم ومنايعة الأصيلة شرقا وغربا.

ومن خلال استشارة كتب التاريخ والأخبار ومصنفات التراجم وطبقات العلماء والفقهاء الواصلة إلينا نقف على حركة كانت نشيطة بين مصادر العلوم وبين القيروان ونظيراتها في الشرق والغرب الإسلاميين على السواء. فما من عالم إفريقي وقيرواني إلا وكان له رحلة إلى عواصم المشرق او المغرب من أجل العلم وطلبه والسعي في سبيله، وكانت مثل هذه الرحلات تطول وتقصر حسب الظروف والأحوال. كما كانت القيروان محط الرحال لهؤلاء الوافدين معلمين ومتعلمين. وساعدها في ذلك موقعها ووضعها الجغرافي الذي جعل منها مفترق الطرق في العالم الإسلامي وكان من الشائع عند المسلمين منذ زمن طويل الرحلة في طلب العلم وفضل الارتحال يكمن في أن العالم المتنقل يطوف بمدن كثيرة، فيشاهد أحوال الشعوب وتقاليد الناس وعاداتهم واختلاف طبائعهم ثم يتصل بأعيانهم، يأخذ عنهم ويتلقى العلم عليهم مما يؤدي إلى كثرة الاطلاع ووفرة الزاد الثقافي

(1) م - ن - 1/1/1 - 63-64.

والعلمي واتساع دائرة المعرفة (1) ويضبط الباحث ح.ح عبد الوهاب بدايات الرحلة من أجل
تحصيل العلم إلى المشرق في قوله: "من القرن الثاني الهجري ابتدأت عناية أبناء مدينتي القيروان
وتونس بحمل العلم، فقصدوا موارده بالمشرق كمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم -، والكوفة
والبصرة ثم دمشق وبغداد والفسطاط، ومالأوا من العرفان وطابهم وعادوا بعد حين إلى الوطن لبث
ما لديهم بين أبناء جلدتهم وكانت هذه الرحلات عادة بعد مرحلة التعليم بالوطن، ورغبة العلماء في
زيادة التفقه وأخذ العلوم الدينية من ينابيعها وتلقي الحديث الشريف والمسائل العلمية. لقد دامت
حركة الارتحال حسب الباحث التونسي المذكور أكثر من مائة عام، اقتنى خلالها الإفريقيون الأصول
والفروع من أئمة ذلك العصر كالإمام أبي حنيفة النعمان، وأبي يوسف والإمام مالك بن أنس رضي
الله عنهم وقد نقل عنهم تلاميذهم علما غزيرا إلى بلادهم ودونوه كل كما يفهمه - ونخص بالذكر
من بين هؤلاء التونسيين: عبد الرحمان ابن زياد بن أنعم (74-161 هـ) الذي وافق أبا جعفر
المنصور في طلب العلم بالعراق، ومنهم عبد الله بن فروخ، وأسد بن الفرات، الأمير والقاضي وفتح
صقلية الذي صاحب الإمامين مالك وأبا يوسف زمنا طويلا ونقل عنهما مروياته المجموعة في تأليفه
"الأسدية" والإمام سحنون (ت 240 هـ) واضع "المدونة" والذي يعد أعظم وأقدم في المذهب
المالكي ومنهم القاضي عبد الله بن غانم (ت 195 هـ) (2).

(1) التربية في الإسلام /62 (بتصرف) .

- أداب المعلمين تح: عبد المولى /32.

- مدرسة لحديث: 53 /1 .

(2) كتاب العمر 37 /1/1 .

وإلى جانب رحلة علماء القيروان إلى الخارج كانت عاصمة إفريقية أيضا قبلة العلماء والمتعلمين، حيث يمر بها أهل المغرب والأندلس في طريقهم إلى الشرق فيسمعون من أهلها، وكثير منهم يصبح جاهزا للعطاء عند عودته إلى بلاده كما فعل بقي بن مخلد المسند القرطبي (201-276 هـ) والمحدث دراس بن إسماعيل الفاسي (ت 357 هـ) وغيرهما كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق .

إجمالا فإنه بفضل هؤلاء وأمثالهم، انتشرت العلوم الإسلامية بإفريقية وخصوصا القيروان، التي لم يمض عليها القرن الثاني حتى صارت منارة العلم وكعبة القصاد في بلاد المغرب العربي، يؤمها الطلاب من جميع الأطراف الإسلامية. ولم تكن الرحلة مقتصرة على طلب العلوم الدينية فحسب بل شملت أيضا الفنون الأخرى كاللغة والأدب والعلوم التي نقلها المسلمون عن الأعاجم مثل الطب والرياضيات والفلسفة، حيث ساعد على انتشارها بإفريقية رواة لثاة وحكام أجلاء، قدموا القيروان واستوطنوها فأخذ عنهم الناس ما كانوا يحملونه ومن بين هؤلاء أبو مالك أبان بن الصمصامة حفيد الطرماح الأكبر، والمسهر التميمي اللذان وفدا أواسط المائة الثانية، وبثا بإفريقية ما كانا يرويانه من الأدب واللغة. ونقل الطب، إسحاق بن عمران، الذي رحل إلى القيروان واتصل بإبراهيم الثاني حول سنة 280 هـ. كما أخذوا الفنون الجميلة والصناعات المستزفة عن محمد بن فرج بن البناء البغدادي الأصل حوالي ريع قرن وكان هذا مولى آل الأغلب من 235 إلى 303 هـ (1).

(1) بساط العقيق /57، 58.

التعليم وصراع المذاهب:

لقد ساهم التعليم بوسائله المشار إليها آنفا في ربوع القيروان في خلق مناخ ثقافي وفكري رفيع المستوى، فنبغ من أبنائها علماء أفذاذ في جميع فروع العلم. وساد المناخ العقلاني خاصة نظرا لوفود العلماء من الخارج بنحلهم ومذاهبهم وثقافتهم المختلفة، فنتج عن ذلك تلاقح فكري وجدل علمي وصراع مذهبي كان عنيفا أحيانا حتى أصبحت القيروان ملتقى لهذه النزعات والنزاعات المتباينة خصوصا في القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى نهاية الخامس وأثبت الباحثون هذا الصراع الديني والفكري طيلة هذه المدة وكان متمثلا في تلك المذاهب المتعددة والفرق المتنوعة حيث راح كل منها يدافع عن كيانه وتأصيل منزهة فظهرت بذلك المناظرات والجدل حول عدة مسائل علمية في الفقه والعقيدة. كما خصصت المؤلفات للرد على الخصوم. وأدى كل ذلك إلى إثراء الحياة العلمية بالقيروان بصفة عامة. ودام هذا الصراع عدة قرون انتهى بإفريقية إلى تبني مذهب السلف وعقيدة أهل السنة والجماعة. أما في الفروع فانتصر المذهب المالكي على غيره من المذاهب (1). هذه الاختلافات الفكرية والمذهبية بأنواعها ومشاربها، لوجدتها ترجع في أساسها إلى مناهج التعليم المتباينة، فمن البديهي أن كل منهج تعليمي يربي أتباعه على نخلته واتجاهه، فيتخرج عنه علماءؤه ومفكروه متشبعين بفلسفة ذلك المنهج ثم بالتلاقي والاحتكاك يكون الاختلاف وينشأ النزاع الفكري والجدل العلمي والصراع الدامي. وهنا يفرض السؤال نفسه على الدارسين: كيف غذى

(1) مدرسة الحديث / 1 / 87.

المنهج التربوي القيرواني هذه الاختلافات المذهبية التي تصارعت على الأرض الإفريقية عامة وعلى الساحة القيروانية خاصة؟

إن القرآن والسنة الشريفة كانا مرجع المسلمين في معرفة العقيدة والعبادات والمعاملات إذ لا سبيل إلى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين وهو القرآن الكريم ومعرفة الأصل الثاني وهي السنة النبوية.

ولم يكتف أهل القيروان بذلك وانتهى الأمر بالفقهاء والعلماء إلى فرض تعليم القرآن كما أكده العالم المسلم "طاش كبرى زادة (ت 953 هـ) في كتابه "مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة": "اعلم أن حفظ القرآن فرض على الأمة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه، فلا يتطرق إليه التبديل ولا التحريف وتعليمه أيضا فرض، وهو من أفضل القرب". كذلك كانت عادة أهل القيروان المتبعة جيلا بعد جيل (1) - وأمام تشبع القيروانيين بعلوم القرآن والسنة الشريفة وترسخهما في عقولهم وأفكارهم تصدوا بشدة وحزم للمناوئين والخصوم من أصحاب المذاهب المبتدعة بجميع الوسائل المتاحة وكان لهم ما كان لأعدائهم من استعمال نفس الأدوات للرد عليهم نصرمة لمذهبهم السني الذي يقوم على القرآن الكريم والحديث الشريف فهذا أبو الحسن القابسي باعتباره من فطاحل علماء السنة ورجال المذهب في القيروان، قد أشار في كتابه المذكور إلى ترسيخ مذهب أهل بلده في عقول الناشئة منذ الصبا. إنه كان لا يقبل التهاون في تعليم القرآن والسير على منهاج السنة الطاهرة الشريفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبين أن منهاج التعليم في بلده كان يستوحي

(1) م-ن/166 (راجع التفاصيل).

وجوده من التيارات الفكرية الإسلامية السنية وإذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه إلى طريقه " (1). من خلال ما تقدم تتضح علاقة التدين عند الناس بمنهج التعليم والتربية في ربوع إفريقية. هي علاقة فرضت نفسه لأنها مستوحاة من واقع الحياة نفسها، فالدين كان ساريا بقوة في النفوس منذ الأجيال الأولى. ونتيجة لذلك وجد العامة من المسلمين أن ما يلائمهم هو بضاعة أهل السنة وعلومهم لسهولة فهمها وبساطة عرضها وخلوها من التعقيد والالتواء وملاءمتها لطبائع الجمهور فيها من العمق لمن يريد التعمق والوسط لمن يرغب في التوسط والحث على العبادة لمن يريد الارتفاع إلى درجات الصالحين من جهة ثالثة وبصفة عامة فإن هذا الاتجاه والتفكير السني يثبت هؤلاء العامة من الناس في عقيدتهم ويقدم لهم الدين في أبسط صورة كما يضمن لهم السلامة وطمأنينة النفس، ورضاء الله تعالى. ثم لا يصرفهم عن العمل بل يحثهم عليه وينظم لهم قواعد السلوك، ووجوه الكسب الحلال ذلك ما جعلهم ينصرونه ويتمسكون به ويثبونه في صدورنا ويتمثلونه في جميع مظاهر حياتهم دون المذاهب الأخرى، وخاصة منها المتسمة بروح الجدل وأساليبه الملتوية، العقلية والفلسفية والصوفية، والتي قريتهم أكثر من أهل السنة والجماعة ونفرتهم من كل ما يحير الفكر ويشوش الذهن. فكانت، إذا، الاستجابة طبيعية وتلقائية وقوية لاستيعاب مذهب أهل السنة والحديث الملائم لهم. لهذا كانت مناهج التعليم عندهم تتجاوب مع ميولاتهم النفسية والعقلية حتى كانت عناية الفقهاء والمربين منهم بالتعليم متساوقة ومتناغمة مع ذلك التمشي، مما أدى إلى تمسك العامة بالدين علما وعملا (2).

(1) عن: م - ن / 176 وما بعدها (راجع أيضا ص/ص: 66 وما بعدها) .

(2) م / ن. 63 وما بعدها: (راجع التفاصيل) .

انتهى الأمر بالتربية والتعليم إلى أيدي أهل السنة في هذه البلاد فكان منهجها مخالفا للمناهج التربوية الأخرى، التي صورها أصحاب المذاهب المناوئة على طريقتهم، المتسمة بالشدة والغلو. ذلك ما لاحظته الإمام الغزالي، الأشعري في كتابه، "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة"، متحدثا عن تشدد أهل الاعتزال وغلو مذهبهم العقلائي: "... من أشد الناس غلوا وإسرافا طائفة المتكلمين كفروا المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر، فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولا وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين" (1).

وتبع لهذا المنهج شب علماء القيروان ونشأوا عليه وترعرعوا على مبادئه مع الأيام، فتمكن منهم علم السلف الصالح أخذا وعطاءا تلقيا وذيوعا، حتى نبغ منهم عظماء وفطاحل وأساطين يشار إليهم في دنيا الناس، منذ الرعيل الأولى، فوصلوا بالعلم التشريعي إلى أقصى درجات البحث ولاستنباط والتخريج والتصنيف، مثل العلامة الفقيه علي بن زياد، تلميذ الإمام مالك بن أنس ونظرائه أسد بن الفرات صاحب مالك وأبي يوسف وكذلك الإمام سحنون محدث المدرسة المالكية الإفريقية، وغيرهم وجاء من بعدهم مالك إفريقية الصغير ومجدد القرن الرابع، الإمام الكبير ابن أبي زيد القيرواني ولم يكن لمثل هؤلاء الرواد اشتغال إلا بالحديث والفقه والذب عن مذهب أهل السنة والجماعة مناظرة وجدلا وتأليفا وتصنيفا، خاصة لما رأوا الناس من أهاليهم في أمس الحاجة لتدبير شؤونهم العامة على أصول الدين الحنيف (2).

(1) فيصل التفرقة /97- ط دار السعادة مصر/1934.

(2) كتاب العمر: 37 /1/1 وما بعدها (بتصرف).

وهذا الإمام سحنون، من جهته قد ناضل كثيرا ضد أهل الضلال والانحراف، كما ورد عنه رحمه الله - "كان أول القضاة فرق خلق أهل البدع وشرد أهل الأهواء من جامع عقبة، لأنهم كونوا فيه حلق الدروس على النحل الصفرية والاباضية والاعتزالية وغيرها.

كما ناظرهم وجادلهم مظهرا زيفهم وبطلانهم وكذلك فعل بعده المتكلم السني ابنه محمد بن سحنون متكلم القيروان وفقههما ثم كان موقف مشهود في هذا المجال للمتكلم البارع سعيد بن الحداد الذي أفحم أهل التشيع في عهد دولة الفاطميين. وسجلت لهم ولأمثالهم كتب التاريخ والتراجم انتصارات عظيمة بإبطال حجج خصومهم وخاصة في قضية "خلق القرآن والإمامة والإرجاء وغيرها (1).

ومن خلال ما تقدم بيانه يتضح أن دور علماء القيروان كان بالغ الأهمية في ترسيخ المنهج التربوي وتعميمه وتكوين شخصيته المتميزة، ثم في ما تركوه، بعد ذلك من تراث السلف وتوجيه الفكر السني في مساره السليم كما اراده الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

إن من أبرز الفضلاء والأجلاء في تركيز الشخصية الإفريقية وفاق لهذا المنهج كان عبد الله بن أبي زيد رحمه الله في القرن الرابع في عهد الفاطميين إذ تميزت آراؤه بالتجديد وصلت إلى حد التفرد في ميدانه. لقد قام هذا الرجل العظيم بدور رائد وطلائعي وقام بواجب كبير في المحافظة على

(1) راجع تفاصيل هذه القضايا الكلامية في:

- كتب الطبقات العروفة وخاصة طبقات الخشني في رباب من انتحل النظر وتحلى بالجدل حيث ترجم ل 19 علما / 197 إلى 219.

- التربية في الإسلام / 58 وما بعدها.

الشعائر السنية للمجتمع القيرواني وحمائته من الهجمة الراضية والبدع الشيعية كما تعرض الدارسون لأعماله الجليلة لفائدة الإسلام والمسلمين في بلاده: "... إن مثل هذه المواقف قد جعلت منه فقيها من الفقهاء الذين اجتهدوا داخل المذهب مراعاة للمصلحة ودرءا للمفسدة، ذلك أن عصره كان مضطربا لما حدث فيه من تحولات اجتماعية وتغيرات سياسية طبعت الفكر والأدب والفقہ والعقائد وغيرها من قضايا المجتمع القيرواني خصوصا والإسلامي عموما.. " (1).

كان لفقهاء إفريقية وعلمائها دور بارز في تشكيل الأحداث مما جعل القيروان ثرية بإنتاجها العلمي والحضاري، كل ذلك يرجع إلى المنهاج التربوي الذي توخاه القيروانيون فتلقفته الأجيال عن الأجيال.

التعليم وتأصيل شخصية القيروان في هويتها السلفية:

يتبين من خلال ما وقع استعراضه أن التعليم قد ساهم في تكوين مجتمع ذي اتجاه سني ومن الملاحظ أن جذور هذا المجتمع تعود إلى جهود الفاتحين الأوائل الذين شرفوا القيروان بمنهجهم منذ أوائل القرن الأول الهجري، فزرعوا تلك البذور الصالحة في الأرض الطيبة والخصبة، حتى نمت وترعرعت وتأصلت ثابتة، جذعها في الأرض وفرعها في السماء واستجاب الله تعالى لدعاء أولئك الصالحين الأول الذين خططوا المدينة المباركة وأسسوا أول منبر في هذه الربوع القاصية يذكر من فوقه اسم الله تعالى مدويا في عنان السماء لا إله إلا هو وحده لا شريك له ومحمد رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم اختاره لتبليغ دينه فقال عقبه رضي الله عنه وهو بين خمسة وعشرين من الصحابة

(1) عبد الله بن أبي زيد / 68، 57 وما بعدها.

الكرام: "اللهم إملأها علما وفقها وأعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك وأعز بها الإسلام وامنعها من جبايرة الأرض" (1).

وعلق صاحب "رياض النفوس" على ذلك "... فشد إليها الناس المطايا من كل مكان وعمرت بفضلاء الناس من الفقهاء والمحدثين والمتطوعين والعابدين والنسك والزاهدين وأعز بها الإسلام وأهله ودمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة" (1).

ولعل الله تعالى استجاب لهؤلاء الفضلاء من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فظلت القيروان إلى يوم الناس هذا عزا للإسلام ومنازة لعلوم الدين، وستظل إن شاء الله تعالى إلى يوم يبعثون رغم ما قاسته وتقاسيه من الويلات والمحن والتخريب والتهديم في بعض العصور واحتضنت الأولياء الصالحين الذين عرفوا الله حق معرفته هذه هي القيروان على الدوام حاضرة العلم والدين والوفاء للسنة الشريفة والتخلي عن الشبهات والضلالات والبدع. واجتنب الإثم والتفنن في محاسن العلم والحصينة بدينها المتشعبة بروحه وتعاليمه السمحاء وستبقى شامخة ومهدا للحضارة العربية الإسلامية ورمزا للإسلام وقلعة الغرب الإسلامي متبعة بمنهج السلف الصالح. هكذا نشأت القيروان نشأة دينية تبنت الفقه الإسلامي على أساس القرآن الكريم والحديث الشريف حتى اصطلح العلماء على تسمية أهلها منذ عصور خلت "بأهل الحديث" وساد فيها مذهبها المالكي مذهب المدينة الشريفة كان لهذا المنهج السني الشريف بعلمائه وفقهائه "أصحاب الحديث" صلة كبيرة بموضوع التعليم بالقيروان. ذلك أن الصلة بين المنهج والموضوع صلة بالغة الأهمية ومن المسلم به أن كل علم

(1) مدرسة الحديث 1/ 47 بإحالاته.

من العلوم يمتاز عن غيره باختلاف موضوع العلم وبالمنهج الذي يتبع أيضا في دراسة هذا العلم، حيث أن المنهج السليم يؤدي إلى نتائج سليمة في الموضوع والعكس كذلك، فالمنهج الخاطئ يؤدي إلى نتائج خاطئة والمنهج السليم يكون عادة ملائما للموضوع المنشود (2). واستنطاقا لكتب التراث كلها التي اهتمت برسم ملامح الحضارة الإفريقية في تلك الحقب، ثبت لدينا أن القيروان قد اتبعت منهج أصحاب الحديث والفقهاء المالكي عامة، كما صوره أبو الحسن القابسي في رسالته التعليمية، وقبله ابن الإمام سحنون قال الإمام المحدث الفقيه أبو الحسن: "... فقد بينت لك ما جاء في فضل تعلم القرآن وعلمه كل ذلك عن كتاب الله عز وجل وعما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم" (3). وتحدث محقق رسالة أبي الحسن القابسي عند دراستها الأستاذ فؤاد الأهواني: "... كل هذه الشواهد التي استعرضها القابسي حول نهج التربية والتعليم بالقيروان، تبين في وضوح أن منهجه هو منهج الفقهاء وبالأخص أصحاب الحديث الذي يلتصقون الآثار ويكرهون الابتداع..." كما دعم قوله برأي ابن خلدون في المقدمة: "ولما صار مذهب كل إمام عالما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس احتاجوا إلى المسائل في الإلحاق وتفريعها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم وصار ذلك كله يحتاج ملكة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا هذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك..." (4).

(1) الرياض: 12 / 1 و 13 وما بعدها (في فضل القيروان).

(2) التربية في الإسلام / 37 إلى 47 (بتصرف).

(3) م - ن / 48.

(4) م - ن / 50-51.

وتأكيدا لقول ابن خلدون نجد قبله ابن الإمام سحنون يستعرض في كتابه منهج التعليم في مدينته بمرصه على فرض تعليم القرآن الكريم مع إعرابه ورسمه بالشكل وإتقان الهجاء والقراءة الحسنة من توقيف وترتيل، والأنسب في نظره أن تكون بقراءة نافع لحسن طريقتها وأيضا لأن الإمام مالك رضي الله عنه أخذ عن نافع. وأهل المغرب عموما مولعون من قديم باقتفاء آثار إمامهم الجليل، وتقليد سننه حتى في غير آرائه الفقهية (1). ونقل القاضي عياض في "المدارك" لما ترجم لأبي العباس عبد الله بن طالب القيرواني (ت 275 هـ) وصاحب محمد بن الإمام سحنون ما يأتي: "وذكر أبو عمر الداني في كتابه أن أبا طالب أيام قضائه امرا ابن برغوث المقرئ بجامع القيروان ألا يقرئ إلا بحرف نافع حتى أن الرحالة الشهير أبا عبد الله محمد بن البناء المعروف بالمقدسي البشاري، لما زار البلاد الإفريقية في حدود 370 هـ وجدها كلها لا تقرأ إلا برواية نافع فقال: "وأما القراءات في جميع إقليم المغرب فقراءة نافع فحسب" (2). ومع تقادم الزمان تبلورت للقيروان شخصيتها الإسلامية متحذرة في هويتها الذاتية وظهرت ملامحها المذهبية في اتجاهها العقدي والشرعي، وتوضحت مقومات سندها العلمي على قاعدة التفكير السني في نهاية الأمر من خلال تلك الصراعات الفكرية والعقلية والمذهبية التي احتدم أوارها فأفرزت مدارسها المختلفة بمشاربها وعقائدها وتفردت ذاتيتها وألوانها ونزعاتها ثم تلاشت واضمحلّت مع الأيام ولم يبق منها إلا التي كانت على الحق والهدي النبوي الشريف كما جاء في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ

(1) آداب المعلمين: 42.

(2) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم 238 ط ليدن 1877.

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ" البينة 7-8". وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لقد تركت فيكم، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي، فعضوا عليها بالنواجذ".

مدرسة القيروان بين الفقه والحديث:

إن إفريقية القيروان أرض فقه وأثر، وخاصة فقه مالك بن أنس وأثر الصحابة، ذلك ما كان شائعا ومتعارفا عند الباحثين والدارسين وما يزال إلى اليوم بين الإسلاميين عموما شرقا وغربا. وكانت تكمن وراء هذه المفاهيم خلفيات غير سليمة في اهدافها أحيانا - وبعض هؤلاء يضمرون ما يضمرون للإسلام وأهله، نوايا تجانب الواقع وتجنح في أعماقها إلى ضرب أعز ما يملكه المسلمون من دين قيم وفكر صائب وسنة طاهرة. وإنهم ما انفكوا، ينعنون أتباع هذا المسلك السني النقي، المتطور بالجمود والتحجر. وظلت الإشكالية مطروحة منذ زمن بعيد، وتمثل في أن أرض الإسلام. ومنها أرض إفريقية تجمدت بتمسكها بالفقه والسنة الشريفة ومذهب مالك خاصة لكن الحقيقة غير ذلك أصلا.

وذلك ما شد أهل القيروان فمالت إليه نفوسهم واستوعبته عقولهم من أجل إرسائه وغرسه في ضمائر أبنائهم بتعليمهم وتربيتهم على منهاجه السليم.

نعم، تبحر القيروانيون في علوم الدين وأصوله فقها وحديثا وفكرا، انطلاقا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. أما علوم الفقه فهي من أهم العلم وأجلها اعتنى بها أبناء القيروان

ووضعوها في مقدمة مشاغلهم وبذلوا جهودا واضحة وقعدوا فيه القواعد الشرعية تمشيا مع تطور المجتمع وتحدد الأحداث مما أكسب القيروان شهرتها الفقهية ووزارة الإنتاج والتصنيف في هذا الباب حتى كاد يغطي كل الجهود المبذولة في خدمة العلوم الأخرى مثل علوم الحديث الشريف ... ذلك، ما اتفق عليه جل الدارسين الذين أكدوا تبخر علماء القيروان في الفقه دون سواه: من أمثال سحنون في "مدونته". وأسد بن الفرات في "أسديته" وبعدهما، ابن أبي زيد في "رسالته" و "نوادير وزياداته"، والبراذعي في "تهذيبه" ... حتى قيل إن عدد طلبة سحنون قد بلغ سبعمائة طالب منهم من بلغ حد الاجتهاد ومنهم من بلغت مؤلفاته الكثرة كابن سحنون (ت 256 هـ).

1- مدارس القيروان الفقهية:

ترجع جذور هذه المدارس بمناهجها الفقهية إلى أوائل الفتح مع غزوة العبادلة السبعة، الذين وفدوا إلى إفريقية في جيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 27 هـ إلى نهاية تركيز الراية الإسلامية بإفريقية على يد حسان بن النعمان سنة 69 هـ، وما بعدها إذ استمر ورود الصحابة والتابعين حاملين علوم الإسلام لنشره في هذه الربوع واستعرضت كتب التاريخ والتراجم والطبقات أسماء هؤلاء المعلمين الأوائل، فكان عددهم يربو على 42 صحابيا، عن هؤلاء تخرجت أفواج متلاحقة من المعلمين القيروانيين الذين انتصبوا للتدريس ونشر الإسلام وتفقيه الناس وتعليمهم أصول الدين حسب ما جاء به القرآن وما ورد في السنة الشريفة .. وتواصلت المسيرة الخيرة في تثبيت دعائم الإسلام بإفريقية بإقامة المجتمع على أسس الحق والعدل وزادها تثبيتا بعثة الفقهاء، العشرة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وهؤلاء الفقهاء يمثلون "فقه السنن" أي الفقه الذي يعتمد أساسا ما جاء

به النص الشرعي من قرآن وسنة. وإلى جانب ذلك عرفت إفريقية فقه الأوزاعي (88-157 هـ) حتى قيل: إن الأوزاعي كان يكره القياس ويقف مع السنة. وقال الإمام الشافعي: "ما رأيت أحدا أشبه فقهه بمحدثه من الأوزاعي"، ذلك بالإضافة إلى المذاهب الفقهية الأخرى.

إن بلادنا قد عرفت في النصف الأول من القرن الثاني فقه السنن على نطاق واسع، وفقه الأوزاعي على نطاق ضيق، ومذهب الأحناف على عهد بني الأغلِب، والشافعية والظاهرية على نطاق محدود للغاية - أما انتشار المذهب المالكي فيعود إلى بداية النصف الثاني من القرن الثاني خاصة بعد عودة طلائع الطلاب الأفارقة، الذين رحلوا إلى المدينة وجلسوا إلى مالك بن أنس ورووا عنه "الموطأ" ثم نشروا أقواله في بلاد المغرب كلها أما علم فقهاء التابعين العشرة فقد تجمع كله عند الفقيه عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري، فهو ومالك أنداد وأقرب (1). وبوفاة عبد الرحمان المعافري، تبرز ملامح مدرسة فقهية جديدة هي مدرسة الحجاز، ممثلة في المذهب بفضل تلك الطلائع الأولى العائدة من مدائن المشرق بعلوم مالك.

ذلك ما أكدته مثلا القاضي عياض في مداركه: "... واما اهل إفريقية وما وراءها من المغرب، فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وأبو أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذه كثير من الناس ولم يزل يفتشو إلى

(1) المعالم: 1 / 230 / 237.

أن جاء الإمام سحنون، فغلب في أيامه رفض حلق المخالفين، واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاخ في تلك الأقطار إلى اليوم⁽¹⁾.

طغت النزعة الفقهية على جملة بلدان المغرب والأندلس وجنوب الصحراء الإفريقية بفضل مدرسة القيروان وفقهائها الأجلاء الذين اجتهدوا في المذهب ونظروا له وصنفوا فيه، حتى اشتهرت به القيروان ورسخت قدمها فيه إفريقية وتضلعت أيضا في علوم السنة الشريفة رواية ودراية وفاقته في علوم الحديث ومصطلحه بعض البلدان الأخرى، وازدهرت في القيروان منذ الفترات الأولى والمالية الدراسات الحديثية، فوقع استيعاب مرويات المشاركة وعلمهم ومصنفاتهم ثم ظهرت في رحاب القيروان حركة علمية زاخرة بعلمائها الأفاضل الذين أسهموا في خدمة السنة بتصانيفهم المتنوعة حتى اكتملت المدرسة الحديثية القيروانية.

2- مدرسه القيروان الحديثية:

إن علوم الحديث الشريف قد لقيت عناية وحظا وافرا في إفريقية لا يقل أهمية عن العلوم الفقهية. وبينت في جلاء الدراسات الحديثية هذه المسألة التي ظلت مطروحة إلى زمن قريب، وفندت الزعم الذي يرى أن إفريقية أرض فقه فقط بل إن البحوث المعاصرة بمناهجها العلمية المتقدمة أوضحت محبة أهل القيروان للرسول صلى الله عليه وسلم، من خلال خدمة سنته الشريفة وتمسكهم بها وذودهم عنها ومن بين الناس ومن البحوث الهامة في هذا الجانب الرسالة الهامة التي أعدها

(1) راجع مزيدا من التفاصيل في هذا الموضوع:

- عبد الله بن أبي زيد 81/87.

- محاضرات ملتقى ابن أبي زيد /مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان 1993.

الباحث التونسي الحسين بن محمد شواط بعنوان مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري. فجاءت دراسة مكثلة وافية في غرضها، وهي التي اعتمدها كثيرا في هذه الدراسة: "لقد استوى في الاهتمام بالسنة النبوية المطهرة، والحرص على سلامتها من الدخيل بدرجات متفاوتة. وقد نالت جهود الأفارقة في ذلك حظها من الدراسات المتعلقة بتدوينها وتحقيق تراثها ونشره، والتعريف بأعلامها وإن كانت هي أيضا لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحوث بتاريخ مراحلها وبيان مناهج بعض مدارسها أما جهود أهل القيروان فإنها لم تنل من ذلك شيئا يذكر وخاصة في العلوم الشرعية وبصفة أخص في مجال السنة وعلومها وتعتبر المرحلة الممتدة من الفتح إلى خراب القيروان سنة 449 هـ أكثر المراحل هضما لجانبها من حيث العناية بدراستها بالرغم من ثرائها بالعلم وأهميتها البالغة لأنها تمثل أساس توجهات الأفارقة العلمية والدينية وكل ما جاء بعدها إنما هو مبني عليها⁽¹⁾.

ويضيف صاحب مدرسة الحديث مبينا جهود القيروان في خدمة السنة الشريفة: "كان للقيروان وإفريقية دور بارز في الاهتمام بها من جميع الجوانب رواية ودراية وتصنيفا. وتقديرا لجهود من كان فيها من العلماء الذين عملوا جاهدين على نشر السنة وإحيائها وغرسها في تلك الربوع، فكانوا سببا في التزام أهلها للسنة وبقائهم في حظيرة الجماعة، خدمة للتراث الإسلامي عامة... كل ذلك يفند ما شاع من القول باقتصار الأفارقة على العناية بالفقه، ويبين اهتمامهم الكبير بالحديث وعلومه أيضا، ويلقي الضوء على مدرسة الحديث بالقيروان ودورها في نشر السنة وعلومها. ومشاهير المحدثين بالقيروان حملوا لواء السنة وذادوا عنه منذ عهد الصحابة إلى منتصف القرن

(1) مدرسة الحديث 10 / 1.

الخامس الهجري (1). واجتهد صاحب "مدرسة الحديث" في تجلية معالم المدرسة الحديثية بالقيروان إلى جانب المدرسة الفقهية المالكية، إذ يقول: "إن علوم الرواية، وقوامها الحديث الشريف، كانت أسبق العلوم في ربوع إفريقية، كما هو الحال في غيرها من بلاد الإسلام حيث كانت مختلف العلوم الشرعية تنتقل في العهود الأولى، بالرواية ويعتبر أكثرها من أبواب الحديث النبوي" (2). وتتضح مسيرة هذه المدرسة في تكوين هيكلها ومنهجها وتطورها من خلال العناية بالتدريس والتعليم والتلقين منذ تأسيس جامع عقبة المعمور، الذي استمرت فيه رواية الحديث النبوي الشريف جيلا عقب جيل حتى ترسخت قدم القيروان في هذا العلم وفنونه فعرفت القيروان "بمدرسة فقه السنن"، خاصة منذ دخول مذهب مالك إلى إفريقية وظهور الفرق المناوئة والمذاهب المخالفة المعتمدة على الرأي والتأويل.

لقد حمل علماء إفريقية لواء السنة الشريفة طيلة تلك القرون، وكانوا حريصين على تلقينها ونشرها وتعليمها في أولى مراحل التعليم بالكتاتيب، حتى أن "موطأ" مالك بن أنس كان أول ما يدرسه الطلاب بعد تخرجه من الكتاب، وكانت المجالس تعج بالمقبلين عليها من مختلف الفئات كالمزارعين والتجار وعامة الناس حبا في الدين وفي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم - ومما يزيد تأكيدا على حرص اهل البلاد على حب الحديث الشريف أن منهم من كان يحفظ "الموطأ" وروايته وهو دون الخامسة عشر أما في عهد بني عبيد الذين منعوا التدريس والتعليم وأغلقوا المجالس والمساجد منعا للرواية فقد أصبح "الموطأ" يقرأ سرا في البيوت والمقابر وغيرها وهناك من اشتهر

(1) م - ن: 11 / 1، 12 وما بعدها.

(2) م - ن: 168 / 1.

بحفظه كاملاً سنداً وممتناً. من بينهم جماعة من الرواة أمثال محمد بن زرزق (ت 291 هـ) وأبي الغصن نفيس السوسي (ت 309 هـ) وأبي الفضل عباس بن عيسى الممسي (ت 333 هـ) وغيرهم كثير، ومما تجدر ملاحظته في هذا المجال أنه لم تقتصر رواية "الموطأ" على الرجال فحسب بل قد شارك في ذلك النساء القيروانيات أيضاً ومنهن من حفظته حفظاً (1).

وبالإضافة إلى عناية أبناء القيروان "بالموطأ" اهتمامهم أيضاً بكتب الصحاح وكتب السنن من ذلك دخول "صحيح البخاري" إلى القيروان لأول مرة على يد الإمام المحدث والفقير أبي الحسين القابسي (ت 403 هـ) وكان ذلك سنة 357 هـ. وعن طريقه شاعت روايته في إفريقية والمغرب والأندلس وهذا الاهتمام المتزايد بالصحيح، يعتبر حدثاً له قيمته في حياة المدرسة السنية القيروانية حيث نشطت رواية الحديث، وشاعت بسببه السنة الصحيحة حتى أصبح هذا الكتاب يعد في المرتبة الثانية بعد "الموطأ" (2).

يتبين من خلال ما تقدم أن القيروانيين في تلك الحقب يعرفون بتمسكهم الشديد بالسنة النبوية وبعلمومها وإذاعتها بين الناس في إفريقية وما وراءها من الأفاق حتى صارت القيروان تعرف بـ "دار السنة" (3).

- آداب المعلمين: المطوي 28 / 20.

(1) مدرسة الحديث : 1 / 274 وما بعدها.

(2) مدرسة الحديث: 1 / 277 - 288 (راجع التفاصيل الهامة في هذه الصفحات)

(3) م - ن 2 / 463 إلى 543.

وكان مصطلح "الفقيه" عند الأفارقة أعم من أن يراد به ذلك العالم القادر على استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة بل كان الفقيه عندهم هو العالم الملم بالحديث والفقه معا، وعلوم القرآن أحيانا، حتى غدا كل العلماء أئمة في علمي الفقه والحديث، بل قد غلب عليهم علم الحديث ثم علموه للأجيال عبر العصور (1).

أما فيما يتعلق بحركة التصنيف في مجال علوم الحديث فإنها كانت حركة نشيطة للغاية إذ تعددت المصنفات في مختلف فنون هذا العلم ولكنها ضاعت كلها مع كبريات الأحداث التي أصابت القيروان عبر العصور وخاصة في عهد الفاطميين (2). وقد سجلت كتب الطبقات والتراجم والموسوعات قوائم طويلة بمصنفات الحديث التي ألفها أهل القيروان وراجع موسوعة العلامة ح.ح. عبد الوهاب "العمر" (م 1 / 1205 إلى 354) ومدرسة الحديث في القيروان: (ج 2 / 788 إلى 993) في أكثر من مائة صفحة حيث بين أهميتها ومظاهرها وفوائدها العلمية وما تركته من تأثير بالغ في الثقافة الإسلامية عامة. ويمكن القول في خاتمة هذا البحث أن القيروان في بحر هذه القرون الأربعة الأولى من حياة الإسلام قد ضمت مدرسة حديثية متكاملة في عناصرها وأركانها، وقامت بجهود واضحة و متميزة في نشر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلومها عن طريق النقل والتصنيف، ووضع القواعد وضبطها مما ساعد على سلامة حديث الرسول الكريم من التحريف، وتنقيته من الشوائب فكان لها إشعاعها مشرقا ومغربا. وكان هذا جميعه بفضل المنهج التعليمي والتربوي الذي سنه واتبعه أهل القيروان كلها داخليا وخارجيا ثم لقنوه الأبناء وعمامة الناس والوافدين

(1) م - ن 2 / 542، 543 (اهتمام القيروان بالسنة والتعليم).

(2) م - ن 2 / 788 إلى 933.

من الأقطار الأخرى. ولولا ذلك المنهج السليم لما استطعنا أن نقول عن القيروان أنما برزت في علمي
الفقه والحديث الشريف والسنة المباركة.

الخاتمة

كان المنهج التربوي الذي اتبعه القيروانيون خاصة وأهل إفريقية عامة متميزا تربت عليه الأجيال
طيلة القرون الأربعة الأولى من حياة الإسلام والمسلمين في الغرب الإسلامي، فتخرج علماء وفقهاء
ومحدثون كانت لهم شهرة واسعة في كل العالم الإسلامي. وهم بوادر أمل نبي بها الحاضر والمستقبل
ذلك أن الحاضر هو امتداد للماضي. وواجبنا نحن اليوم أن نحفر عن ذلك التراث الزاخر ونستفيد
منه ونفيد غيرنا حاضرا ومستقبلا - إن المنهج التربوي الإسلامي الذي حاولت هذه الدراسة تلمسه
لجدير بالاهتمام من الباحثين والدارسين من أبناء هذه الأمة لفضله الكبير في إرساء أسس العلوم
الإسلامية بجميع فنونها، خاصة منها العلوم الشرعية، التي جعلت المدرسة السننية بفكرها البناء،
ومذهبها العتيد شامخة راسخة تؤدي دورها في إثراء الثقافة الإسلامية.